الفلسفة الاسلاميـة

فى العصـــر الحديث

أ.د. حامـــد طاهر(*)

ليست **الفلسفة الاسلاميـــة** فى العصر الحـــديث الا حلقة أخرى من حلقات التـــاريخ الطويل لهذه الفلسفة ، واذا كانت هـــذه الحلقة تختلف فى خصائصهـــا أو طابعها العام عن باقى الحلقات الســـابقة ، فما ذلك الا لارتباطها الشـــديد بمرحلة جديدة تماما على العالم الاسلامى . وهـــذه المرحلة مختلفـــة ، الى حد كبير ، عن باقى المراحل التى مر بهـــا المسلمون من قبـــل .

لقـــد كان للفلسفة الاسلامية ، منذ ظهورها فى العالم الاســـلامى ، دور هام فى تنظيم المعارف الاسلاميـــة ، وترسيخ مناهج البحث فى العلوم العربية والدينية ، بالاضافة الى معالجة قضايا الانسان الكبرى فى علاقته مع الله ، ومع العالم ، وأخيرا فى تزويد العقل الاسلامى بقدرة هائلة على النقد ، والتحليل ، والمنـــاظرة ..

وقد ذكرنا فى موضع آخر(1) أن مجالات الفلسفة الاسلامية قد تعددت بحيث أمكن القول بأنها تشتمل على أكثر من عشرة مجالات ، وهى :

— الفلسفة التقليـــدية ذات الاستلهام اليـــونانى (الطبيعيات — الرياضيات — الالهيات) .

— علم الـــكلام .

— علم مقالات الفـــرق .

— التصـــوف .

— الأخـــلاق .

— التجارب الذاتية والتأملات .

(*) أستاذ الفلسفة الاسلامية المساعد ، بكلية دار العلوم ، جامعـــة القـــاهرة .

— أصول الفقه (وخاصة فيما يتعلق بمباحث الدلالة والقياس) .

— فلسفة التـاريخ .

— المنطق وشروحه .

— مناهج البحث النظرية (وتطبيقاتهـا فى مختلف العلوم العربيـة والاسلاميـة) .

— آداب الجدل والمنـاظرة .

ومن الواضح أن هذه المجالات تغطى مساحة واسعة جدا من النشاط الفكرى لدى المسلمين ، واذا كان بعضهـا قد استنفد مجهودات أصحابه فى معالجة « مشكلات زائفـة » ، فان بعضها الآخر قـد واجه « مشكلات حقيقية » ، وقدم اجابات مقنعة على كثير من الأسئلة التى طرحت على العقل الاسـلامى فى لحظات معينة »(٢) .

لكن الفلسفة الاسلاميـة — كأى نشاط فكرى — لابد لها من بيئة مناسبة تنشأ فيها ، وتتطور ، وتزدهر . ولا ننكر أن مثل هذه البيئـة قد توافرت فى أماكن مختلفـة من العالم الاسلامى ، وعبر عصور متعـددة ، فهيأت للفلسفة الاسلاميـة قدرا كبيرا من الازدهار . ولا يمكن أن نفصل أمثال الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد والغزالى والماوردى وابن حزم وابن الجوزى عن بيئاتهم التى أتاحت لهم تقديم أفكارهم ونظرياتهم المبتكرة الى العالم الاسـلامى .

وفى المقابل من ذلك ، فان الفلسفة الاسلامية تسرع بالاختفاء عندما يرفضها المجتمع ، أو بتعبير أدق ، عندما تحرمها السلطة الزمنية من ممارسة دورها فى المجتمع(٣) ، وهكذا نلاحظ أنه ابتداء من القرن السابع الهجرى ، قد امتدت فترة طويلة ، خالية تقريبا من أى ومضة فكرية متميزة ، باستثناء ابن تيمية (المتوفى ٧٢٨ هـ) وابن خلدون (المتوفى ٨٠٨ هـ) .

وفى العصر الحدث ، تعرض العالم الاسلامى لأكبر هزة فى تاريخه ، عن طريق التقائه المفاجىء بالغرب الأوربى ، الذى جاء اليه — هذه المرة — ليستقر على أرضه ، ويتغلغل فى دماغه ، لكن المسلمين ما كادوا يستعيدون

توازنهم من هول هذا الالتقاء ، حتى أسرعوا باللجوء الى ماضيهم العريق ، يتلمسون فيــه عناصر القوة التى تعينهم على مواجهــة الحاضر وكانت « الفلسفة الاسلامية » أحد هذه العناصر ، كما سنثبت ذلك بعد قليل .

وما أسرع ما عدلت الفلسفة الاسلامية من وجهتها ، وموضوعاتها ، ومنهجها لكى تتعامل مع الواقع الجديد للعالم الاسلامى ! وعلى أيدى مجموعة من الشخصيات المتميزة راحت الفلسفة الاسلامية تكتب تاريخها الحديث ودون أن تفقد خيوط صلتها بالماضى ، أخذت تعالج واقع الحاضر الاسلامى بمشكلاته الطارئة ، وتوجه الشعوب الاسلامية نحو المستقبل الأفضل .

وهكذا يمكن القول بأن الفلسفة الاسلامية فى العصر الحديث تتكون من: **« مجموعة النظريات والأفكار الاصلاحية ، التى نادى بها زعماء الاصلاح ، وعدد من الكتاب ، وأساتذة الجامعات ، فى المجتمع الاسلامى ، منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى الآن ، وذلك النهوض بالعالم الاسلامى ، وتمكينه من مواصلة التقدم نحو أهدافه الكبرى التى فقد الطريق اليها منــذ زمن طويل »** .

ومن المعروف أن كتابة تاريخ للفلسفة يعنى بالدرجة الأولى تاريخا للأفكار والنظريات مجردة قدر الامكان عن سير الأشخاص ، وتتابع الأحداث، وظروف العصر ، لكن الفلسفة الاسلامية ، وخاصة فى العصر الحديث ، تأخذ طابع الالتحام القوى بالواقع ، المتغير ، وترتبط عضويا بشخصيــات محددة ، وبظروف عامة لا يمكن فصلها عنها . وبالاضافة الى ذلك كله ، فان بعض « أفكارها » ينبغى استخلاصه من« أحداث » أو « مواقف » معينة ، بل ان بعضها الآخر ينطق بصوت عال من بين لحظات الصمت .

والفلسفة الاسلامية فى العصر الحديث تبدأ مع بداية التاريخ الاسلامى الحديث ، أو قبله بقليل (ونقصد بالجملة الأخيرة : الاشـــارة الى **الحركة السلفية** التى قادها محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ — ١٧٩١ م .) فى شبه الجزيرة العربيــة ، والتى اتجهت أساسا الى تنقيــة العقيدة الاسلامية مما لحق بها من عناصر الشرك والوثنية بسبب شيوع الجهل ، والبعد عن المصادر الأساسية للاسلام ، وكان لها من الناحية الثقافية تأثير واضح

على كل الحركات الدينية التالية ، أما من الناحية السياسية فكان لها الفضل في توحيد القبائل المتنافرة فى شبه الجزيرة العربية تحت راية واحدة .

أما التاريخ الاسلامى الحديث فيتزامن ابتداؤه مع مجىء **الحملة الفرنسية** الى مصر والشام (١٧٩٨ — ١٨٠١ م) . ونحن لا نقر بهذه المسلمة الا من واقع التمايز الواضح بين المرحلتين اللتين تفصل بينهما تلك الحملة : المرحلة السابقة عليها ، والمرحلة التالية لها .

المرحلة السابقة تمتد حوالى خمسمائة عام ، تسير فيها أحوال المسلمين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على وتيرة واحدة ، وتكاد تتشابه الى حد كبير فى خصائصها العامة ، وأحيانا فى تفاصيلها الجزئية . واذا جاز لنا أن نطلق وصفا عاما على هذه الحقبة التاريخية الطويلة ، أمكن القول انها تتصف **بالثبات** ، بكل ما يحمله هذا الوصف من خصائص التشابه ، والتوقف ، والتكرار .

أما المرحلة التالية للحملة الفرنسية ، فأهم ما يميزها هو **الحركة** ، بكل ما تعنيه من تنوع ، وتطور ، وسرعة فى الايقاع . ومن الواضح أن هذه المرحلة الثانية هى التى تمتد حتى اليوم . وهنا نود أن نشير إلى أن ما يعيشه المجتمع الاسلامى اليوم ، وربما غدا ، يعتبر نتيجة مباشرة لبداية الأحداث وتطورها فى تلك الفترة التى أعقبت الحملة الفرنسية . ولهذا السبب تأتى أهمية التعرض لها فى بداية التاريخ الاسلامى الحديث ، الذى نعتبره وثيق الصلة تماما بتاريخ الفلسفة الاسلامية ذاتها .

لقد جرى تناول الحملة الفرنسية غالبا من جانب الكتاب المسلمين بنفس الطريقة التى عبر بها أفراد الجماعة الذين لمس كل منهم جزءا محددا من جسد الفيل ! فهناك من يرى أنها الشرارة التى أشعلت النار فى الهشيم ، يعنى أنها هى التى أيقظت العالم الاسلامى من سباته الطويل ، وهناك من يرى أنها مجرد حدث تزامن مع نهضة العالم الاسلامى التى كانت قد بدأت خلال تلك الفترة ، أو قبلها بقليل . وهناك أخيرا من لا يرى فى الحملة الفرنسية الا أنها بادرة الخراب الذى حل بالعالم الاسلامى ، الذى كان يسير على « أفضل نحو ممكن » ولولا هذه الحملة المشئومة لاستمر فى أمان حتى اليوم .

وليس من غرضنا هنا الدخول مع أصحاب هذه الاتجاهات فى مناقشة لأنها ستبعدنا بالتأكيد عن هدفنا المحدد من هذا البحث ، وحسبنا أن نقول ان هـذه الاتجاهات كلها انما تفسر « حادثة » الحملة الفرنسيـة انطلاقا من موقف معين خاص بها ، وليس من طبيعة الحادثة نفسها ، وارتباطها بما قبلها ، وبما بعدها من أحداث أخرى ، متشابهة أو متناقضة على السواء .

ولن ننساق الى وصف الحملة الفرنسية ، كما فعل الآخرون ، وانما سنعرض هنـا لمجموعة الآثار المباشرة التى ترتبت — فى رأينا — عليها . ونسرع فنقرر أن هذه الآثار لا تحمل كلها طابعا موحدا ، أو تمضى فى اتجاه واحد ، بل ان بعضها قد يتناقض مع البعض الآخر ، تماما مثل الموجة التى تصطدم بصخور الشاطىء ، فتتناثر فى أكثر من اتجاه . وهذه الآثار نجملها فى خمس نقاط :

١ — تحطيم قوة المماليك العضلية (المعتمدة على السيف) أمام القوة الجـديدة (المعتمدة على البارود) . وهـذا معناه ببساطة انتهاء عصر ، وبداية عصر آخر . وتلك مسألة خاصة بصراع الحضارات .

٢ — اثبات ضعف الخلافة العثمانيـة ، واشهار عجزها عن حماية ولاياتها فى مصر والشـام ، وهو الأمر الذى دفع المصريين — لأول مرة فى تاريخهم — الى تقريرهم مصيرهم بأنفسهم ، واختيار من يتولى أمورهم (محمد على ١٨٠٥ — ١٨٤٨) . ولا يمكن أن نصف هـذا العمل الا بأنه « نصف خطوة » على طريق الشورى الاسلامية ، واختيار الأمة للحاكم .

٣ — توجيه اهتمام الانجليز الى ضرورة حمـاية الطريق المؤدى الى مستعمرتهم الكبرى فى الهند ، وهو مصر ، لهذا أسرعوا بتحطيم الأسطول الفرنسى الرابض فى ميناء الاسكندرية،واجهاض هدف الفرنسيين من الحملة. ومنذ هـذه اللحظة بدأ اعداد انجلترا ، الطويل المدى ، لاحتـلال المنطقة فيما بعد . ومن ناحية أخرى ، فان فرنسا لم تنس لانجلترا أبدا هذا العمل ، فظلت تشجع حركات المقاومة المصرية للانجليز ، وهو الأمر الذى استغله جزئيا بعض زعماء الاصلاح (جمال الدين الأفغانى) وقادة النهضة الوطنية (مصطفى كامل ،ومحمد فريد) .

٤ — كسر الحاجز السياسى والاجتماعى والنفسى بين الشرق والغرب، أو بين الاسلام وأوربا . فبدلا من أن تكون « المعارك الحربية » هى وحدها لغة التعامل بين هـذين الطرفين ، التقليديين فى عداوتهما ، قام « تبـادل المصالح » بدور العلاقة الجديدة . ومع الأسف لا يتم هذا الا بين متكافئين ، لذلك فانه لم يؤت أبدا ثماره على النحو الذى ظل بعض المفكرين المسلمين يحلمون به حتى الخمسينات من القرن العشرين(٤) .

٥ — تنبيه العقل العربى — الاسلامى الى حقيقة موقفه التـاريخى فى تلك الفترة ، ويمكن أن نتبـين ذلك بوضوح فى كتابات المؤرخ المعـاصر للحملة الفرنسية **الجبرتى** ، وبصفة خاصة ، فى « الدهشة » التى أبداها من رؤية بعض التجارب الكيميائية البسيطة التى أطلعه عليها علماء الحملة الفرنسية . وفى رأينا أن هذه الدهشة كانت نقطة انطلاق العقل الاسلامى من سكونه ، وبدء حركته المستمرة التى لم تهدأ حتى اليوم ..

والسؤال الآن : ما الذى نستخلصه من سرد هذه الآثار ؟ — أمور كثيرة يمكن أن تكون موضوع دراسة مستقلة . لكن من الواضح أن هـذه الآثار هى التى شكلت « خلفية المسرح » الذى جرى عليه تمثيل الرواية ، المتعـددة الفصول ، والتى استمر عرضها خلال القرن التاسع عشر كله ، والنصف الأول من القـرن العشرين ، على أرض مصر ، طليعة العـالم الاسلامى ، فى ذلك الوقت .

ثم بعد رحيل الحملة الفرنسية ، امتدت فترة تبلغ نصف قرن شهدت « **تجربة محمد على** » (١٨٠٥ — ١٨٤٨) التى تمثلت فى محاولة التحديث ، وتعويض التخلف ، والأخذ بوسائل التقدم المادى الذى تم فى أوربا . وهنا نصطدم ، مرة أخرى ، بحادثة تاريخيـة ، جرى حولها كلام كثير . فهناك من ينظر الى تجربة محمد على ، على أنها بناء لمصر الحديثـة ، وهناك من يعتبرها مجرد أن يبنى له — ولأسرته من بعده — امبراطورية واسعة(٥) ، وفريق ثالث يجرد التجربة من أى مضمون حضارى ، وهكذا ..

ان متابعة الكثير مما كتب عن تلك الفترة تطلعنا على أن الدراسـات التى تناولتها — رغم جدية بعضها — لم توفها حقها حتى الآن . وكنا نرجو

أن يستمر الباحثون فى تحليل هذه التجربة ، التى نرى أنها لم تنشأ من فراغ كامل ، وانما لهـــا جذورها ، أو على الأقل نماذجها السابقة ، التى تمتـــد فى التاريخ الاسلامى القديم ، وسنلتقى هنا بالاشارة الى بعض النقاط :

— حتى الآن ، لم يقـــارن أحد من الباحثـــين بين تكوين الأسطول الاسلامى الجديد فى عهد معاوية بن أبى سفيان (والى الشام ، ثم الخليفة الأموى الأول) وبين بناء الجيش والأسطول الحديث فى عهـــد محمد على ، مع أن العملين متشابهان الى حد كبير .

— ولم يقارن أحد حتى الآن بين تنظيم الدواوين فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، وبين تنظيم اختصاصات الدولة الحديثة ، ومؤسساتها المختلفة فى عهد محمد على .

— ولم يقارن أحد حتى الآن ، وخاصة من الناحية الثقافية البحتة ، بين انشاء الخليفة العباسى المأمون لبيت الحكمة فى بغداد ، وانشاء محمد على لمدرسة الألسن فى القاهرة .

— وأخير لم ينبهنا أحد الى امكانية توافر الوعى التاريخى الاسلامى لدى محمد على لفكرة تبادل العواصم الاسلاميـــة مكان الصدارة فى فترات متعاقبـــة ، وعلى نحو كان يحافظ — فى الغالب — على استمرار العـــالم الاسلامى ، وبقاء تماسكه . « فلم تكد تسقط دمشق حتى نهضت بغداد ، وعندما سقطت بغداد نهضت القاهرة ، وقبـــل أن تسقط القاهرة نهضت استانبول .. وهكذا كانت كل عاصمة تحمل الراية الاسلاميـــة حتى يحين أجلها المحتوم ، فتسلمها الى جارتها ، دون أن يعنى ذلك أن احداها كانت تبيد الأخرى تماما ، لتنهض على أنقاضها .

نحن نصف محمـــد على أحيانا بمحاولة بناء امبراطورية لنفســـه ، فننزعه بذلك نزعا من الاطار الاسلامى ، الذى أشرنا اليه ، ونلحقه قسرا بكل من الاسكندر الأكبر ، ونابليـــون ، وهتلر فيما بعد .. وما أجدرنا — بدلا من ذلك — أن نجمع كل أعماله ، ونصنفها ، ثم نقوم بتحليـــل كل منها فى اطار باقى الأعمال الأخرى من ناحية ، وفى علاقته مع الظروف التى أحاطت به من ناحيـــة أخرى ، متخلصين نهائيا من الأفكار الشائعة ، والمسبقة ، ومن وجهات النظر الأجنبية .

ان تحليل بعض أعمال محمد على يبرز عناصر هامة للغاية من ((**فكرة الاصلاح**)) . ومن المعـروف عنه أنه أحاط نفسـه بمجموعة من كبـار المستشارين الأجانب ، وما لبث أن أحل محلهم المبعوثين المصريين الذين أوفدهم ليتعلموا فى أوربا . ومعنى هـذا أنه كان ((يستشير)) من حوله قبل اتخاذ قراراته ، كما كان ((يتابع بحزم)) تنفيذ هذه القرارات . ولا شك فى أنه أحسن الاستفادة من مختلف الظروف التى أحاطت به ، سواء كانت محلية أم دولية ، واذا كان ((الجيش المصرى)) الذى كرس معظم جهوده لتكوينه ، قد قضى عليه أثناء حياته ، فان ((القناطر الخيرية)) التى بناها — لأول مرة — على نيل مصر لتنظيم زراعة أخصب قطعة فيها — ما زالت باقية وعاملة حتى اليـوم .

وليس معنى هذا أننا نريد أن نجعل من محمد على فيلسوفا اسلاميا ، وانما نود أن نقرر فقط أنه كان من أهم الحكام الذين مهدت أعمالهم لنشأة الفلسفة الاسلامية فى العصر الحديث .

لـكننا — من موقف فلسفى اسلامى — ينبغى الا نمر صامتين على حملته العسكرية التى جردها للقضاء على الوهابية ، وهى كما سبق القول حركة اصلاح دينى ، كان محمد على قد أدرك أبعادها الحقيقية ، ليس فى شبه الجزيرة العربية وحدها ، وانما فى العالم الاسلامى كله . ومع ذلك ، فنحن نعلم أن الذى دفعه الى تلك الحملة انما هو السلطان العثمانى نفسه ، كما أن ضبـاط الحملة كانوا فرنسيين !

وهناك نقد آخر عنيف،يتجه الى سياسته فى التعليم.فقد آثر محمد على تعليم صفوة مختارة من أبناء الشعب المصرى ، دون أن يسعى لتعميم التعليم بين كل أبنائه . وهذه قضية جوهرية نميل الى أن السبب فى تضليله عنها يرجع الى المستشارين الأجانب الذين اعتمد عليهم ، ويبدو أنهم لم يتخلصوا تماما من العمل خفية لخدمة بلادهم الاستعمارية .

أما الفكرة الأساسيـة التى يشرف بها عهد محمـد على ، فهى عدم التورط فى الديون الأجنبية (وهى التى كبلت أحفاده من بعده) . فمع حاجة مصر فى ذلك الوقت الى مثل هذه الديون لاقامة مشاريعها الكبرى ((ترسانة

الأسطول ، ومصانع الذخيرة ، واقامة السدود ، وشق الترع الخ) لا نجد هذا الحاكم المتميز يلجأ اليها ، ومن ثم فقد حافظ على استقلال مصر طيلة حياته . ((ومن المعروف أن الديون الأجنبية هى التى تفتح الباب للتدخل الأجنبى ، ومنه يدخل الاستعمار) .

وهناك فكرة أخرى ، تتمثل فى كيفية الافادة من الغرب . فقد أجاب محمد على بحسم على هذا السؤال ((الذى ما زال يطرح حتى اليوم فى العالم الاسلامى) عندما قرر ضرورة اقتباس وسائل الغرب فى مجال التقدم المادى، دون أن يثير « مشكلة زائفة» حول ما اذا كان هذا الاقتباس مشروعا أو غير مشروع ! ان فلسفة « البعثات المصرية الى أوربا » تبين بوضوح أن أفرادها جميعا توجهوا لدراسة « جوانب عملية » من التقدم الغربى ، وخاصة فى المجال العسكرى ومتطلباته ، يضاف الى ذلك أن كلا منهم قد كلف بترجمة كتاب فى مجال تخصصه الى اللغة العربية ، وأخيرا فانهم كانوا يوضعون — بعد عودتهم من البعثة — فى أماكن عملهم المناسب .

لا عجب اذن أن تكون النتائج باهرة : فقد نجح **المبعوثون** المصريون فى مهمتهم العلمية ، وفى أداء الوظائف التى أسندت اليهم ، ونجح **العمال** المصريون فى ادارة وتشغيل المصانع ((والآلات الميكانيكية) التى جاء بها محمد على لخدمة الجيش المصرى ، ونجح **الجنود** المصريون فى استيعاب نظم الحرب الحديثة ، واستخدام أسلحتها الجديدة .

وانما العجيب أن يكون هذا النجاح نفسه هو سبب الفشل . فقد لاحظت الدول الاستعمارية تزايد القوة المصرية المطردة ، الى الحد الذى راحت تمد فيه يد المساعدة الى عاصمة الخلافة الاسلامية فى استانبول ، فقررت ضربها ضربة قاضية ، يبدو أنه لم تقم لها بعدها قائمة حتى اليوم !

وهكذا شهد النصف الثانى من القرن التاسع عشر **((انقضاضة)) الاستعمار الغربى** — للمرة الثانية خلال قرن واحد للاستيلاء على ما يسمى — الآن — بمنطقة الشرق الأوسط . وكان احتلال انجلترا لمصر سنة ١٨٨٢م هو قمة الكارثة ، التى لم تقتصر آثارها السيئة عليها وحدها ، وانما على شعوب العالم الاسلامى كله ، بما فيها تركيا نفسها !

ولا يسعنا هنا الا أن نؤكد أن « وجود » محمد على نفسه هو الذى أخر تلك الانتفاضة الاستعمارية الى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. وقد خلف من بعــده أحفاد لم يكونوا على نفس كفــاءته ، وحسن ادارته . وبرز فى شخصية كل منهم نقطة ضعف ، أو أكثر ، استغلتها القوى الغربية استغلالا جيدا ، وأهم من ذلك ، أنهم تولوا « عرش مصر » على أنه حق لا واجب ، وتشريف لا تكليف ، واستمتاع لا جهاد ..

لم ينتبــه أحفاد محمد على لعناصر القوة الموجودة فعــلا فى المجتمع الاسلامى ، فلم يستغلوها ، ولم يدركوا جيدا خطورة الديون الأجنبية فغرقوا فيها ، وعلى الفور برز التدخل الأجنبى (اشتراك وزراء أجانب فى منصبين بالوزارة المصرية أحدهما انجليزى للمالية ، والآخر فرنسى للأشغال) ثم كان الاستعمار الكامل .. وهنا ، ولأول مرة فى تاريخ العالم الاسلامى ، تخضع مجمــوعة كبيرة من شعوبه — وهى التى مثلت غالبا طليعته — لسيطرة الاحتلال الغربى ، الذى قرر — مع سبق الاصرار هذه المرة — أن يستقر فيها طويلا (فلم تعد القضية مجرد الاستيلاء على مدينة القدس ، والشريط الساحلى المحيط بها ، كما خطط لذلك قادة الحملات الصليبيــة فى القرنين الخامس والسادس الهجريين) ، لذلك كان احكام القبضة على هذه الشعوب قويا ، وخانقا ، ولم يدع لها فرصـــة كبيرة لتلتقط أنفاسها ، أو تعيــد ترتيب شئونها .

واذا تأملنا جيدا دلالة الأحداث فى تلك الفترة بالذات ، لاتضح لنا — كما سبقت الاشارة — أنها المفتاح الأساسى لفهم العصر الحاضر بجميــع تناقضاته الظاهرة والخفية على السواء . وسوف نتوقف هنــا عند نقطتين أساسيتين تتعلقان مباشرة بموضوع بحثنا ، وهما :

— سياسة التعليم .

— قضية الاقتباس من الغــرب .

بالنسبة للنقطة الأولى ، نجد أن حالة التعليم ، قبل مجىء محمد على ، كانت متخلفة الى حد كبير . ولم يبذ لهو نفسه ، كما سبق القول ، جهــدا كبيرا لاصلاحها ، ونعنى بذلك أنه لم يتجه الى اصلاح التعليم من ناحية الكم ،

بتعميمه بين جميع أبناء الشعب ، ومن ناحية الكيف ، بتنظيمه ، وتعديل مناهجه حتى تتناسب مع طبيعة العصر الجديد . ونعتقد أن هذه نقطة ضعف فى سياسة محمد على ، وعندما حاول أحفاده متابعة مسيرة جدهم ، كانت الأمور قد خرجت من أيديهم ، وأصبحت القرارات — فى مجال التعليم كما فى غيره — تأتى من بريطانيا العظمى لتطبق على أبناء الشعب فى مصر .

وهكذا تمت صياغة التعليم المصرى — وبالتالى العربى والاسلامى — صياغة أجنبية منذ البداية . وهذا ما نشهده بوضوح فى انقسام التعليم الى مدنى ودينى ، وفى اختفاء خيوط التاريخ الاسلامى الصحيح من مناهج الدراسة ، وفى اهمال الجوانب المزدهرة من الحضارة الاسلامية ، وفى تعقد اللغة العربية الفصحى على ألسنة التلاميذ ، والسخرية منها فى مجالس العامة ، وفى تقديم نموذج التعليم الأوربى « المقلد » على أنه النموذج الوحيد لتقدم المجتمع ، وفى انتشار المدارس والجامعات الأجنبية وجذبها المستمر لأبناء المسلمين بقصد صياغتهم صياغة فكرية معينة ، وفى اهمال العناية بالتعليم الدينى — وكان بالامكان اصلاحه لو ترك لأهله النابهين حرية القرار والتنفيذ — وأخيرا فى ظهور أقسى مهزلة شهدها المسلمون ، وهى اعفاء من يحفظ القرآن الكريم من التجنيد فى صفوف الجيش ، وكان هذا بعد كل اعتبار ابعادا للمسلم عن شئون الدفاع عن وطنه (قارن ذلك بعدد القتلى من حفظة القرآن الكريم الذين أرسلهم أبو بكر الصديق لاخماد فتنة الردة عقب وفاة الرسول ﷺ !) .

أما النقطة الثانية فتتعلق بقضية الاقتباس من الغرب ، ومدى هذا الاقتباس . وقد سبقت الاشارة الى أن محمد على قد حسم هذه القضية بقبول الاقتباس ، فى المجال المادى وحده ، وبالأخص فى الجانب العسكرى منه . لكن حفيده اسماعيل (١٨٦٣ — ١٨٧٨) أعلن صراحة أنه سيعمل على جعل مصر قطعة من أوربا ، وهذا معناه أنه قرر اختيار طريق « التغريب الكامل » أى الحاق مصر بأوربا فى كل شىء . لكنه هل كان يعنى ذلك حقا ؟ (كما فعل كمال أتاتورك بعد ذلك بوقت قليل فى عاصمة الخلافة الاسلامية نفسها) — نحن نشك فى ذلك . والا فلو أنه كان يعنى ذلك حقيقة لأكثر من البعثات ، وركز على وسائل التقدم المادى ومنجزاته فى مجالات الصناعة

والزراعـــة والتجارة ، وزاد من كفـــاءة الأجهزة الحكوميـــة ، واعتنى بالمواصلات .. الخ ولكنه لم يكن يقصد من مفهوم الحضارة الغربية الا قشرة سطحية » ، فقرر بناء دار للأوبرا فى القاهرة ، تعرض على خشبتها أرقى ما توصل اليه الفن الأوربى ، بينما غالبية شعبه غارقة فى الأمية ، والجهل ، تعانى البؤس ، وتتعثر فى الحرمان .

لاشك فى أن هذه بعض الجوانب المؤلمة ، ودلالاتها أشد ايلاما . وهى بالفعل جوانب مظلمة من الصورة . لكن « **ومضات الاصلاح** » ما تلبث أن تظهر فتبشر بالأمل ، وتوحى بالتفاؤل . وهذا ما نود معالجته فى الجزء التالى من هذا البحث ، الذى ننتقل فيه من مسرح الأحداث التاريخية — فى تلك الفترة — الى مجموعة الأفكار الفلسفية التى نشأت فيها ، وتوالت بعدها .

ومن البديهى أن يحتاج هـــذا العمل الى « منهج » يمكنه أن يسيطر على تلك الأفكار العديدة والمتناثرة ، ويقيم بينها قدرا من الترابط المنطقى ، والطبيعى فى الوقت نفسه ، ويساعد جزئياتها المختلفة على أن تأخذ شكل اتجاه ، أو حتى عدة اتجاهات . ولا شك فى أنه بالامكان اقتراح أكثر من منهج لتنفيذ هذا العمل ، سواء من جانبنا أو من جانب زملائنا من الباحثين ، لكننا نفضل أن نعرضه تبعا للمنهج الذى يتكون من الخطوات التالية :

١ — مرحلة التمهيد لنشأة الفلسفة الاسلامية فى العصر الحديث .

٢ — الرواد (زعماء الاصلاح) وأفكارهم .

٣ — أساتذة الجامعات والتخصص .

٤ — مشكلات الحاضر ، وامكانات المستقبل .

أولا : التمهيد لنشأة الفلسفة الاسلامية فى العصر الحديث :

وتشمل من حيث **نقطة البـــدء** :

(ا) حركة محمد بن عبـــد الوهاب الاصلاحية ، والتى سبقت مجىء الحملة الفرنسيـــة ، وكان لها آثارها على معظـــم الحركات الاصلاحيـــة فيما بعـــد .

(ب) الآثار (الثقافية) التى ترتبت على الحملة الفرنسية ، وأهمها ايقاظ الوعى الاسلامى على مدى التخلف المادى ، والتصميم على النهضة .

ثم يأتى بعـــد ذلك دور القنوات الثقافية التى انفتحت أمام العقـــل الاســـلامى لكى يمارس نشاطه السابق ، ويؤدى مهمتـــه فى بناء الانسان الجـــديد .

١ — **البعثـــات** : ومن نتائجها الاطلاع على مظاهر الحضارة الغربية ، واستمرار الاتصال بالغرب عن طريق اللغات الأجنبية (الترجمة) .

٢ — **المطبعة** : التى راحت تنشر التراث القـــديم ، وتربط المسلمين بمصادر ثقافتهم الأولى .

٣ — **التعليم** : الذى أخذ يتسع نطاقه ، ويشمل بالتدريج أعدادا أكبر من أبناء المجتمع الاســـلامى (على الرغم من انحراف اتجاهه عن الطـــريق الصحيـــح) .

٤ — **دور الكتب** : التى قامت بدور هام فى حفظ المعارف ، وتسهيل الاستفادة منهـــا .

٥ — **الصحافة** : التى قامت بدور هام فى نشر الوعى العام ، واشاعة التنوير فى طبقات عديدة من المجتمع .

وفى رأينا أن الفلسفة الاسلامية لا تتطلب فى دور نشأتها — أو اعادة بعثها — أكثر من هذا !! ولا يمكن أن نخفى دهشتنا من توافر كل هذه القنوات فى وقت واحد تقريبا ، بحيث هيأت جميعها البيئة المناسبـــة لتلك النشأة . والذى يتأمل جيدا فيها يجد أن كل عنصر منها كان لازما لزوما ضروريا لغيره من العناصر . وأنها مجتمعة كانت مقدمة طبيعية لظهور الفلسفة الاسلامية فى تلك الفترة .

وهناك شخصيتان بارزتان قامتا بدور هام فى ارساء قواعد هـــذا التمهيد ، وهما : رفاعة الطهطاوى ، وعلى مبارك . كلاهما من أبناء الشعب المصرى ، تلقى تربية دينية ، واتصل منذ صغره بالقرآن الكريم ، ثم وقع عليه الاختيار ليكون ضمن البعثات التى أوفدها محمـــد على الى أوربا ،

وعقب عودته ، أتيحت له الفرصـــة لكى يحقق ما يراه ضروريا من أفـــكار الاصلاح ودعائمـــه .

أما **رفاعة الطهطاوى** (١٨٠١ — ١٨٧٣) فكان مقررا أن يكون الامام الدينى لأول بعثة مصرية الى فرنسا ، لكنه صمم على دراسة اللغة الفرنسية مثل أعضاء البعثة تماما ، وعنـدما أظهر تفوقا فيها أصبح مثلهم مبعوثا ، وتم اعداده ليتولى مهمة الترجمة الى اللغة العربية .

وفى مصر ، عقب عودته ، عمل رفاعة الطهطاوى مترجما فى مدرســة الطب ، فقام بجهد طيب فى تعريب كثير من المصطلحات الحديثة ، ثم كان له فضل انشاء مدرسة الألسن سنة ١٨٣٥ (وهى التى سبقت الاشارة الى مشابهتها دار الحكمة فى عهد المأمون) ثم قلم الترجمة سنة ١٨٤١ . وعلى يديه ، تخرجت عدة أجيال قدموا للمكتبة العربية بما يزيد على الألف كتاب فى شتى فروع المعرفة الحديثــة .

أما دوره فى مجال الصحافة العربيـــة الناشئة حينئذ ، فيتمثل فى أنه دفع الكتابة فيها خطوات الى الأمام . فقد نقل جريدة « الوقائع المصرية » من مجرد نشر الخبـــر الحكومى الجاف الى نشر المقال التحليـــلى فى اللغة والأدب والاجتماع . وفعل نفس الشىء ، وبحرية أوسع ، عندما تولى رئاسة تحرير مجلة « روضة المدارس » التى أنشـــأها على مبارك ، وهى المجلة التى صاحبت النهضـــة العربية والاسلامية فى خطواتهـــا الأولى ، وجمعت على صفحاتها خلاصة الفكر المصرى المستنير فى تلك الفترة .

وأما **على مبارك** (١٨٢٣ — ١٨٩٣) والذى كان مقدرا له هو الآخر أن يصبح مهندسا ، فقد تولى بعد عودته من البعثة وضع السياسة التعليمية، وتنفيذها فى مصر . ومن يريد أن يتعرف على أفكار الرجل ينبغى ألا يتلمسها فقط فيما ترك من مؤلفات (الخطط التوفيقية ، رواية علم الدين) وانما فيما قام به من أعمال ، وما أنشأ من مؤسسات .

وتجدر الاشـــارة الى أنه أول من فكر فى اصلاح « كتاتيب » مصر ، ومحاولة الارتقاء بمستواها الصحى ، والتعليمى . فقام بحصر هذه الكتاتيب، وفرز الصالح منهـــا ، لتحويله الى مدارس ابتدائية تتمتـــع برعاية مباشرة من الحكومة ، بدلا من تركها مهملة فى أيدى الأهالى .

لكننا نؤكد هنا على ثلاثة أعمال لعلى مبارك ، كان لها ، وما زال ، دلالتها الفكرية العميقة فى مجال الاصلاح ، وهى :

— انشــــاء دار العلوم .

— انشــــاء دار الكتب .

— انشــــاء قاعة للمحاضرات العامة .

أما **دار العلوم** ، فهى عبارة عن مدرسة عليا ، كان الغرض من انشائها تخريج مدرسين عصريين ، بمعنى أساتذة يعلمون اللغة العربية ، والعلوم الاسلامية بصورة حديثة تتمشى مع روح العصر ، نتيجة « تكوينهم الثقافى الخاص » ، وهــذا هو المهم . فقد كان يتم اختيار طلابها من خيرة طلبة الأزهر بامتحان ، ويختار لهم خيرة العلماء من الأزهر ، وغيره (مثل مدرسة الهندسة العليا ، ومدرسة المحاسبة ، والادارة ، وغــيرها) ويعلم طلبتها العلوم الدينيــة واللغوية ، وشيئا من علوم الدنيا كالرياضة والجغرافية والتاريخ والطبيعة والــكيمياء .

والذى يطلع على « منهــج » دار العلوم الذى وضعه على مبــارك ، والتعديلات الطفيفة التى أدخلت عليــه فيما بعد ، يلاحظ بوضوح شمول النظرة المتكاملة الى الثقافة الاسلامية بكل عناصرها : اللغوية ، والأدبية ، والدينية ، والتجريبية والانسانية . ويبدو لنا — وهذه وجهة نظر خاصة — أن الغرض الأساسى لم يكن ، كما ذكر الأستاذ أحمد أمين — هو حل مشكلة اللغة العربية وحدها(٦) ، وانما كان حلا للمشكلة الثقافيــة والحضارية بوجه عام .

ويتضــح ذلك من مدى التنــوع الذى ظهر فى المواهب التى تخرجت فى دار العلوم ، منذ انشائها حتى الآن ، فقد قدمت للعالم العربى والاسلامى نخبة من كبار الشعراء (على الجارم ، ومحمود حسن اسماعيل) والروائيين (محمد عبد الحليم عبد الله) والصحفيين (عبد العزيز جاويش) وزعماء الاصلاح الدينى (حسن البنا ، وسيد قطب) وعلماء الشريعة (على حسب الله) وعلماء الاجتماع (على عبــد الواحد وافى) وأساتذة الأدب (عمــر الدسوقى ، ومحمــد غنيمى هلال) وعلماء اللغة (ابراهيم أنيس ، وتمــام

حسان) وأساتذة الفلسفة الاسلامية ((أبو العلا عفيفى ، وابراهيم مدكور ، ومحمود قاسم) (٧) .

فهل يمكن بعد هذا القول بأن الغرض من انشاء دار العلوم كان هو حل مشكلة اللغة العربية وحدها !

أما **دار الكتب** فهى غنية عن التعريف بذاتها . ويكفى فقط لمعرفة قيمتها فى عصرها أن نشير الى أن الكتب ، وخاصة المخطوطة ، كانت قبل انشائها مبعثرة فى المساجد ، أو الأماكن المهجورة ، معرضة فى كل الأحوال للضياع والتلف ، وبعضهـا من أموال الأوقاف الذى لا يمكن تداوله ، أو الانتفاع به . واذا حدثت استفادة منه ، فهى لأفراد قلائل . فكان عمل على مبارك أن « جمعها فى مكان واحد ، ورتبها ، وسهل الاستفادة منها ، وجعل لها قاعات مطالعة ، فكان من ذلك حركة علمية وشعبية ساعدت على النهضة المصرية »(٨) .

وأما **قاعة المحاضرات** ، فهى لمن شاء من الراغبين فى التزود بالمعرفة والثقافة المتنوعة ، « يحاضر فيهـا كبار الأساتذة من مصريين وأجانب . فيحاضر مثلا الشيخ حسين المرصفى فى الأدب ، واسماعيل بك الفلكى فى الفلك ، والشيخ عبد الرحمن البحراوى فى الفقه ، ومسيو بروكسن فى التاريخ العام ، وأحمد ندا فى النبات — فاذا حاضر محاضرة باللغة الأجنبية القيت محاضرته بعد ذلك باللغة العربية . وهذه المحاضرات يومية ما عدا أيام الجمع . وكل محاضرة ساعة ونصف »(٩) فأى جامعة عصرية مفتوحة تبلغ هذا المستوى ؟ !

ومن الواضح أن مثل هذه « الأعمال » ليست الا تطبيقا جيدا لأفكار اصلاحية . فالغرض منها كما يبدو هو اشاعة التنوير فى المجتمع الاسلامى ، وذلك عن طريق فتح **القنوات الطبيعية** التى تصل منها المعرفة الى عقول أبنائه ، فيتحركون بعد ذلك لتغيير واقعهم ، والارتقاء به .

ويقتضينا الانصاف الا نمر على أعمال كل من رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك دون أن نشير الى نقطة هامة جدا ، وهى أن كلا من هذين المصلحين قد عمل من خلال الحكومة القائمة . وقليل هم المفكرون ، العرب والمسلمون ،

الذين أتيحت لهم امكانية وضع « أفكارهم » موضع التنفيذ . صحيح أنهم لاقوا الكثير من الصعوبات أثناء العمل والتنفيذ . لكنهم نجحوا على أية حال .

ونحن سنرى — فيما بعد — أن معظم المصلحين المسلمين كانوا يعملون من خارج السلطة الزمنية ، وغالبا ما كانوا يناهضونها ، وهو الأمر الذي لم يهيء لأفكارهم — على الرغم من أنها ظلت عالقة فى الجو — فرصة التحقق فى الواقع . وكان لهذا أثره الواضح على معدل حركة التقدم بصفة عامة .

ثانيا : الرواد وأفكارهم :

لم يكن عمل الرواد سهلا على الاطلاق . فقد كان عليهم أن يكافحوا فى عدة جبهات ، استنفدت كل واحدة منها معظم جهودهم : كان عليهم **أولا** أن يحاربوا الاستعمار الغربى ، وينبهوا العالم الاسلامى الى خطورة تغلغله فى حياة المسلمين . وكان عليهم **ثانيا** أن يجاهدوا الحكام المستبدين ، الذين انحصر همهم فى اشباع رغباتهم ، والتمسك بعروشهم ، ولو كان ذلك بالتعاون مع المستعمر الأجنبى على حساب المسلمين . وكان عليهم **ثالثا** مهاجمة حالة الجمود والتخلف التى رانت على العقول الاسلامية ، بسبب اهمال العلم ، واحتقار العمل ، وقصور النظر فى فهم الدين الاسلامى .

ومن الطبيعى أن يلتقى الرواد — فى كل ميدان من هذه الميادين الثلاثة — بمدافعين متشبثين بمصالحهم الخاصة ، ومكاسبهم التقليدية . وهذا ما جعل بعض الرواد ينتهى يائسا من أى اصلاح ، وبعضهم الآخر يغير أحيانا من موقفه ، فيتحول على مضض من ثائر الى مهادن ، وقلما شعر واحد منهم بطعم الراحة ، أو بلذة النصر . وكلهم تقريبا مات مريضا ، أو منفيا ، أو مغموما ! ذلك أن قوى الشر كانت كلها متكاتفة ضد جهودهم الفردية . ويكفى أن المستعمر الأجنبى بكل شراسته ظل قائما دون ما يريدون . وكثيرا ما تدخل لنفيهم ، أو سد الأبواب تماما فى وجوههم ، أو تشويه صورتهم فى عيون المجتمع الاسلامى الذى وهبوا حياتهم لاصلاحه .

ورغم كل ذلك ، فقد أدى هؤلاء الرواد دورهم بشجاعة نادرة . وكانوا كلما زاد الطريق أمامهم غموضا ، والليل اسودادا ، استهدوا ايمانهم العميق بالله ، وتشبثوا بالثقة فى نصره .

ينتمى الرواد من حيث المكان الى أجزاء متفرقة من العالم الاسلامى : فبعضهم من أفغانستان ، وبعضهم من الهند ، وبعضهم من تركيا ، وبعضهم من الشام ، وبعضهم من مصر ، وبعضهم من تونس ، وبعضهم من الجزائر ، وبعضهم من المغرب . ولهذا — كما هو واضح — دلالته القوية ، وهى أن العالم الاسلامى بكل أجزائه لم يذعن أبدا للوضع الجديد الذى فرضه عليه الاستعمار الغربى بالقوة . والنقطة الأساسية التى تجمع هؤلاء الرواد جميعا — على الرغم من اختلاف أماكنهم ، وثقافتهم واتجاهاتهم — هى محاربة الاستعمار الغربى لبلادهم ، ولبلاد العالم الاسلامى كله . ولاشك فى أن ثمرة كفاحهم — رغم عدم ظهورها فى حياتهم — قد نضجت فيما بعد ، وتمثلت فى رحيل الاستعمار العسكرى على الأقل من كافة بلاد المسلمين ابتداء من منتصف القرن العشرين .

وفيما يلى قائمة بأسماء هؤلاء الرواد . ليس الغرض منها الترتيب التاريخى ، فبعضهم متزامن مع البعض الآخر (كما أن تاريخ الوفاة المتقارب ينبغى ألا يكون فاصلا بين اثنين منهم . فربما توفى أحدهم بعد زميله ، لكن نشاطه الحقيقى انتهى قبل ذلك بفترة طويلة) وانما الغرض الذى تصدناه هو اضافة الأفكار الأساسية ، أو أهمها الى كل واحد منهم . ومن هذه البداية يمكن أن يتم فيما بعد ربط هذه الأفكار بعضها ببعض ، تمهيدا لاستخلاص الاتجاه أو الاتجاهات العامة التى تضبط عناصرها الجزئية .

— **الأفغانى** : ايقاظ الشرق الاسلامى كله من سباته ، ومحاربة الاستعمار الانجليزى بكل الوسائل الممكنة .

— **محمد عبده** : التنوير المعتدل عن طريق التربية والتعليم ، ومنهما يعرف الشعب حقوقه فيطالب بها .

— **الكواكبى** : مهاجمة الحكم الاستبدادى ، والدعوة الى الوحدة الاسلامية وطرح التخلف .

— **عبد الله النديم** : مهاجمة الجهل والخرافات والعيوب الاجتماعية ، مع اثارة الشعب ضد الاستعمار .

— **محمد رشيد رضا** : مقاومة الجهل والخرافات ، والعناية بتفسير القرآن الكريم تفسيرا عصريا .

— **على يوسف** : ربط المسلمين بماضيهم ، وبباقى اخوانهم فى العالم .

— **عبد العزيز جاويش** : المناداة بحرية الصحافة ، وضرورة جعل التعليم باللغة العربية فى مواجهة غلبة اللغات الأجنبية .

— **خير الدين التونسى** : ضرورة الاقتباس من الغرب لصالح العالم الاسلامى ، والمناداة بالعدل والحرية بوصفهما أساسا لاقامة مجتمع متقدم .

— **مدحت باشا** : طريق الاصلاح هو تطبيق الديمقراطية الحديثة ، التى تعتبر ثوبا جديدا للشورى الاسلامية ، واحترام الدستور من الجميع .

— **السيد أحمد خان** : الاصلاح عن طريق التربية والتعليم ، مع النظرة الدينية المتسامحة .

— **السيد أمير على** : انهاض المسلمين للمطالبة بحقوقهم ، مع الدفاع عن الاسلام ضد خصومه ، والتنبه لأهمية « الأوقاف » فى نشاط المجتمع الاسلامى ، والدعوة الى تعليم بنات المسلمين .

— **عبد الحميد بن باديس** : مهاجمة الطرق الصوفية التى اشاعت روح التواكل ، والعمل على تربية جيل مسلح بالايمان والعلم معا ليتمكن من مكافحة المستعمر (١٠) .

هل هذه القائمة كاملة ؟ بالتأكيد كلا . لكنها مسودة قابلة للاضافة والزيادة (فى حين أننا نعتقد أنها غير قابلة للنقصان) . والمهم هو أن نستخلص منها معنى « الريادة » أو « الزعامة الاصلاحية » التى أجاد التعبير عنها بالفعل الأستاذ أحمد أمين . ومن ناحية أخرى ، فاننا قد نختلف على تحديد مفهوم « الأفكار الأساسية » و « الأفكار الفرعية » لدى هذه الشخصيات . وهو اختلاف مشروع ، لكن متابعة التأمل والمناقشة فيما هو أساسى وفيما هو فرعى (تماما كما دعونا من قبل الى مناقشة ما هو حقيقى وما هو زائف) واختبارهما تبعا لمقاييس متفق عليها سوف يصل بنا الى مفهوم متقارب ، ان لم يكن موحدا .

ويبقى تعقيبا على تلك القائمـــة أن نقول : ان كل هؤلاء الرواد تقريبا قد اتصلوا بالفلسفة الاسلامية ، اما فى مرحلة التكون بها ، أو التدريس لها . وأن النظرة الشمولية التى تنتجها دراسة هـــذه الفلسفة للثقافة الاسلامية فى عمومها هى التى ارتفعت بهم من مستوى التعمق الجزئى فى أحد فروع الثقافة الاسلامية ، الى مستوى الاحاطة المتكاملة لهـــذه الفروع ، والنقطة الأهم ، أنهم ربطوا هـــذه الثقافة بالواقع من أجل تحسينه ، وتحريكه نحو مستقبل أفضـــل .

ثالثا : أساتذة الجامعات ، والتخصص :

قبل ان ندخل فى صميم هذا الجزء من المنهج الذى اقترحناه ، لابد أن نتوقف أولا عنـــد مجموعة من **الكتاب** ، الذين اتصـــل بعضهم بالجامعات الناشئـــة فى مطلع القرن العشرين ، وقاموا — هم أيضا — بدور هام ساعد كثيرا — سواء بالفعل أو بردود الفعل — على بلورة الرواد السابقـــين . وسوف نشير من هؤلاء الى :

— **قاسم امين** : الدعوة الى تحرير المرأة (وردود الفعل لذلك) .

— **على عبد الرازق** : محاولة تجريد نظام الخلافة الاسلامية من أصولها الدينية (وردود الفعل لذلك) .

— **سلامة موسى** : دعوة الشباب (العربى) الى استلهام الروح الغربية للتقدم (وردود الفعل لذلك) .

— **د.طه حسين** : التحليل الاجتماعى للفترة الأولى من تاريخ الاسلام (وردود الفعل لذلك) .

— **حسن البنا** : مؤسس جماعة الاخوان المسلمين ، وصاحب الدعوة الى تطبيق الاسلام فى مجال السياسة .

— **سيد قطب** : توضيح التصور الاسلامى بطريقة مقنعة ، وتفسير كامل للقرآن الكريم بأسلوب أدبى رفيع .

— **العقـــاد** : عرض الاســـلام بلغة عصرية ، والرد على خصـــومه

— **د.محمد حسين هيكل** : كتابة السيرة النبوية (وبعض شخصيات الصحابة) بأسلوب عصرى .

احمد أمين : تطبيق منهج تحليلى لكتابة التاريخ الاسلامى ، والاهتمام بزعماء الاصـــلاح .

— **الرافعى** : ابراز عظمة البلاغة القرآنيـــة .

— **الزيات** : انشاء المقالة الأدبية — الاسلامية ، الرفيعة المستوى .

ومن المؤكد أنه ينطبق على تلك القائمة ما ينطبق على القائمة السابقة. ويلاحظ أننـــا اقتصرنا هنا على ذكر الكتاب المصريين وحـــدهم . ولا جدال فى أن تأثيرهم كان بالغا على باقى الأمة الاسلامية . وتتمثل أهميتهم — فى هذا المجال — فى أنهم قاموا بدور تنويرى يعتبر حلقة الوصل بين الرواد الأوائل ، وبين ما سوف تشهده الفلسفة الاسلامية على جه الخصوص من دراسات متعمقة فى دوائر الجامعات العربية والاسلامية .

وقد يقال : ألم يكن طه حسين من الجامعة ؟ — بلى . ولكن نشاطه وتأثيره وردود الفعل التى أحدثها امتدت خارج الجامعة ، واتسمت فى دوائر ثقافية أوسع من حدودها . ومن جهة أخرى ، فان العقاد — الذى ظل خارج الجامعة — قد امتد تأثيره القوى الى داخلها . وهكذا فان اتجاه الحركة كان مزدوجا ، وذلك على خلاف ما سوف تشهده المرحلة التالية التى اقتصرت فيها الفلسفة الاسلامية على الدوائر الجامعية وحدها .

فى بداية نشـــأة الجامعة المصرية — وهى أقدم الجامعات فى العالم العربى والاسلامى — اقتضت الحاجة الاستعانة بالأساتذة الأجانب فى العالم التخصصات ، ومنها الفلسفة الاسلامية ، التى قام بتدريسها بعض كبار المستشرقين ، وأشهرهم الكونت دى جلازرا ، وماسينيون .. ومن الطبيعى أن يركز هؤلاء الأساتذة على الموضوعات التى كانت شائعة فى أوربا ، والتى اتسمت فى اتجاهها العام بالانتقاص من الفكر الاسلامى ، بل ورمت الاسلام نفسه بأنه دين لا يشجع كثيرا على البحث الفكرى الحر .. وفى هذا الجو ، قام الشيخ **مصطفى عبد الرازق** بدوره التأصيلى الهام للفلسفة الاسلامية .

وكتب هو نفسه « تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية » الذى يعد بحق أول كتاب منهجى يدرس الفلسفة الاسلامية ، وخاصة من وجهة نظر اسلامية .

وتحتوى موضوعات هذا الكتاب — الذى كان يدرس فى الجامعة المصرية ابتداء من العشرينات من هذا القرن ، ولم يطبع فى شكل كتاب الا فى سنة ١٩٤٤ م — على تتبع اتجاه الرأى فى الفقه الاسلامى ، واعتباره بداية حركة العقل الاسلامى فى تناول مشكلات الحياة المعاصرة له . ومن أفكاره المشهورة انه دعا الى اعتبار علم أصول الفقه أحد فروع الفلسفة الاسلامية نظرا لطابعه الفلسفى الواضح ، والقضايا الكلية التى يتناولها .

وفى نفس الوقت تقريبا ، كان **محمد اقبال** مهتما هو الآخر بمحاولة اعادة بناء الفلسفة الاسلامية بناء جديدا فى محاضراته التى القاها بالانجليزية فى الجامعات الهندية ، وترجمت فيما بعد الى اللغة العربية بعنوان « تجديد التفكير الدينى فى الاسلام » . ويهمنا هنا أن نلفت النظر الى الفصل السادس من هذا الكتاب ، وهو بعنوان « مبدأ الحركة فى بناء الاسلام » الذى يعتبر قمة ما وصل اليه تفكير محمد اقبال نفسه ، وفيه يدعو بقوة الى ضرورة الأخذ بالاجتهاد معتمدا فى ذلك على دراسة مصادر الفقه الاسلامى الأربعة : القرآن ، والسنة ، والاجماع ، والقياس .

ومن الواضح أن هناك لقاء فكريا بين الرجلين : مصطفى عبد الرازق ، ومحمد اقبال ، على الرغم من اختلاف ثقافتهما الأجنبية : فالأول درس فى فرنسا ، والثانى فى انجلترا . لكن نزعتهما الاسلامية الأصيلة جعلتهما يلتقيان على أرض مشتركة ، فوحدت وجهات نظرهما ، بل ومنهجهما أيضا (وفى رأينا أن المقارنة بينهما تستحق دراسة تفصيلية) .

وكان لكل من الرجلين تلاميذه فى الهند ، ومصر . أما تلاميذ اقبال فهم الذين قادوا — فيما بعد — حركة الاصلاح الدينى ، والاجتماعى ، والسياسى (انشاء دولة باكستان سنة ١٩٤٧ م) ، وأما تلاميذ مصطفى عبد الرازق فهم الذين شغلوا أقسام الجامعات المصرية التى تدرس الفلسفة الاسلامية ، وعمقوا تخصصاتها المختلفة .

وهنا لابد من الاشارة الى أن مفهوم « **التلمذة** » الذى نقصده يتسع

الى أكثر من مجـرد التلقى المباشر عن الأستاذ ، الى التأثر به ، واستلهام خطاه ، والاحتكاك بتلاميذه المباشرين ، ومسايرة اتجاهاتهم .. الخ . وهذا ما ينطبق على من سنذكرهم فى القائمة التالية :

— **أبو العلا عفيفى** : دراسة محيى الدين بن عربى ، وفلسفته الصوفية (بالانجليزية حتى الآن) مع اعتبار التصوف هو الثورة الروحية فى الاسلام .

— **ابراهيم مدكور** : دراسة الفارابى ، ومنطق أرسطو وتأثيره فى العالم الاسلامى ، واقتراح منهج تاريخى مقارن لدراسة الفلسفة الاسلامية .

— **محمود قاسم** : دراسة ابن رشد وتأثيره فى توماس الاكوينى ، ونقد مدارس علم الكلام ، مع تقديم مناهج البحث الحديثة باللغة العربية ، وأخيرا دراسة مقارنة بين ابن عربى وليبنتز .

— **عثمان امين** : دراسة اعمال الامام محمد عبده ، وترجمة عدة مؤلفات لديكارت مع تقديم نظرية اسلامية جديدة أسماها « الجوانية » .

— **أبو ريده** : دراسة الكندى ، والمعتزلة (وخاصة النظام) مع تعليقاته الشهيرة على ترجمته لكتاب دى بور « تاريخ الفلسفة فى الاسلام » .

— **توفيق الطويل** : دراسة الصراع بين الفلسفة والدين ، ثم دراسات واسعة حول مذاهب الأخلاق الغربية .

— **محمود الخضيرى** : ترجمة أهم كتب ديكارت « مقال فى المنهج » مع نظرات صائبة فى تاريخ الفرق الاسلامية .

— **احمـد فؤاد الأهوانى** : دراسة الـكندى ، وتحقيق عـدد من رسائله .

— **محمد مصطفى حلمى** : دارسة الحب الالهى عند ابن الفارض .

— **عبدالحليم محمود** : دراسة الحارث المحاسبى،وعدد من شخصيات التصوف السنى ، وأخيرا دفاع حار عن المنهج الذوقى لدى الصوفية فى مجال المعـرفة والسلوك .

— **محمد عبـــد الله دراز** : استخلاص نظرية للأخلاق القرآنيـــة ، مع دراسات تحليلية مقارنة للمصدر الأول للاسلام .

— **ابو ريان** : دراسة السهروردى المقتول ، وفلسفته الاشراقية .

— **على سامى النشار** : دراسة مناهج البحث عند مفكرى الاسلام ، ونقد المسلمين (ابن تيمية) لمنطق أرسطو ، ثم تتبع نشـــأة الفكر الفلسفى فى الاسلام فى مجالات علم الكلام ، والتشيع ، والتصوف .

— **عبد الرحمن بدوى** : بيان التأثير اليـــونانى ، والأفلاطونى المحدث فى الفكر الاسلامى ، مع ترجمة العديد من فلاسفة الغرب للغة العربية .

— **عبد القادر محمود** : دراسة تاريخ التصوف الاسلامى ، والاتجاهات الباطنية فى الفكر الاسلامى .

— **محمد البهى** : دراسة الجانب الالهى من التفـــكير الاسلامى ، وصلة الفكر الاسلامى الحديث بالاستعمار الغربى .

ويمـــكن القول ان نشاط هؤلاء الأساتذة قد امتـــد الى ثلاثة مجالات فى وقت واحـــد :

(ا) مجال الدراســـات التى ذكرناها ، والتى كتب معظمها باللغـــة الفرنسية أو الانجليزية ثم أعيدت كتابتها أو ترجمت الى اللغة العربية . والمهم هو قيام هذه الدراسات كلها على قواعد المنهج العلمى الحديث (وهو المعتمد على جمع اكبر كميـــة من المعلومات حول موضـــوع البحث ، ثم تحليلهـــا وتصنيفها فى ابواب وفصول ، مع ترتيب النتائج على المقدمات ، وبروز نزعة النقد والمقارنة ، واخيرا الالتزام الدقيق بالاشارة الى المصادر والمراجع .

(ب) مجال الترجمة لعـــدد كبير جدا من مصادر الفلسفة الغربيـــة ، وكذلك بعض الدراسات التى قام بها المستشرقون حول الفلسفة الاسلامية . وهو الأمر الذى ألقى كثيرا من الضوء على جوانب غامضة من تلك الفلسفة ، كما وسع من دائرة النظر والمناقشات حولها ، وفتح مجال الدراسات المقارنة الحديثة فيهـــا .

(ج) مجال النشر للعديد من روائع التراث فى مجال الفلسفة الاسلامية كان لها أكبر الأثر فى تكوين فكرة أكثر صحة عن هـــذه الفلسفة ، ولا شك فى أن الدارسين المعاصرين قد أصبحوا ينعمون بمجموعة موثقة من النصوص المحققة ، مما دفع أبحاثهم خطوات الى الأمام .

ومن حسن الحظ ، أن بعض هؤلاء الأســـاتذة الذين ذكرناهم ما زال يمارس نشاطه حتى اليوم . لكن الجيل الذى تربى على أيديهم ، أو سافر بتوجيههم الى أوربا فى بعثات علمية ، هو الذى يقوم حاليا بجنى الثمار التى زرعها هؤلاء . وهم يواصلون المسيرة ، وتقريبا نفس الاتجاهات مع زيادة مطردة فى عدد الطلاب الذين يتخرجون على أيديهم ، وكذلك فى عدد رسائل الماجستير والدكتوراه التى يمنحونها للباحثين . ومن المعروف أن كل رسالة تتناول موضوعا محددا فى الفلسفة الاسلامية أو تدرس شخصية معينة ، أو تحقق نصا قديما بأسلوب علمى متفق عليه الى حد كبير (١١) .

رابعا : مشكلات الحاضر وامكانات المستقبل :

يمر العالم الاسلامى فى الثلاثين سنة الأخيرة بفترة من أشد الفترات ارهاقا له ، ويمكن أن نطلق عليهـــا « فترة مراجعة الذات ، والبحث عن طريق .. » وتأتى هذه الفترة عقب تخلص العالم الاسلامى فى الخمسينات من الاستعمار الغربى (العسكرى) وامتلاكه تقرير مصيره بنفسه (باستثناء الجزء المحتل من فلسطين) .

لكن ما قيمة امتلاك هذا القرار « الخاص » ، وقد تشابك العالم كله من حوله فى علاقات مختلفة ، تجعل حركته مقيدة ، وانطلاقته محـــدودة . هذا بالاضافة الى أنه يخرج — الآن — الى اقتحام « تجربة التقدم » وقـــد أنهكه صراع طويل مع المستعمر ، استنفذ قواه وثروته ، وعمل عمله القوى فى عقله وتصوراته :

ما زالت الديون الأجنبية تكبل معظم العالم الاسلامى وما زال عدد كبير من أبنائه يرسف فى الأمية . وما زال عدد آخر ، تربى على المنهج الغربى تماما ، غير مقتنع بأصول الحضارة الاسلامية المنشود اعادتها من جديد .

وما زال صوت الاصلاح الدينى والاجتماعى والثقافى عموما خافتا اذا قورن بأصوات أخرى أعلى رنينــا واقل نفعا .. وهــكذا يمكن أن نستمر فى « ما زال ... » طويلا !!

وتزيد المسألة صعوبة ، اذا أضفنا بعض المستجدات : فقد أصبح العــالم تحكمه قوتان كبيرتان ، لكل منهمــا « أيديولوجية خاصة » ، وهما تتنازعان فيما بينهما مناطق النفوذ ، ومن بينهــا منطقة الشرق الأوسط ، قلب العالم الاسلامى . وأصبح فى امكان احدى هاتين القوتين أن تشعل حربا فى أى منطقة فى العالم ، تحت أى شعار من الشعارات ، فتزهق أرواح ، وتضيع ثروات ، وتنتهى دول .. واصبــح المسلمون ، كل منهم منكب على مشكلاته الخاصة ، لا يكاد يرى أبعد من موضع قدميه ، ولا يهمه ما يحدث لباقى المسلمين ، وأخيرا ، فقد عادت بعض المشكلات الزائفة (وهى التى لا تجدى مناقشتها نفعا) تطل برؤوسها ، وتشغل الأذهان عما هو حقيقى ، وواقعى ، ومعقول .

وهكذا لم تمض مائة عام بعد على اختفاء صوت الأفغانى ، الذى نادى بنهضة الشرق الاسلامى ، حتى بدت الحاجة ماسة الى « أفغانى » آخر ، يتميز بشمول النظرة ، وتحديد موطن الداء ، واقتراح العلاج المناسب ، ويتحلى ، قبل ذلك كله ، بالاستعداد الكامل للتضحية وانكار الذات .

لكن أين الفلسفة الاسلامية من ذلك كله ؟ — اقتصرت على الجامعات ، وانزوت فى التخصصات الدقيقة جدا ، واصبحت علمــا من العلوم بعد أن كانت منهجا للاصلاح ، وروحا للنهضة .

ونتساءل عن السبب ، فنجــده مرة أخرى فى « الترويض » الغربى الخطير لذلك العنصر الهام من عناصر قوة المسلمين ، وفى استجابة المسلمين لهذا « الترويض » الذى حول الفلسفة الاسلامية الى « معمل أبحاث » شديد التعقيم ، شديد البعد عن مشكلات المجتمع الاسلامى ، وهوائه الخارجى . وبذلك نزع « فتيل الاصلاح » من قلب الفلسفة الاسلامية ، ذلك الفتيل الذى ظل مشتعلا فى أيدى الرواد الأوائل ، فكانت له آثاره المباشرة ، التى نقلت العالم الاسلامى كله من عصر الى عصر آخر .

ومع ذلك ، فان الفلسفة الاسلامية لم تختف تماما من المجتمع الاسلامى

(لأن عناصر وجودها وتطورها مازالت قائمة) ومن يريد أن يبحث عنها الآن، فما عليه الا أن يتلمسها فى **« مجموعة التيارات الفكرية والسياسيــة التى تسود العالم الاسلامى فى اللحظة الراهنة »** . ومن الضرورى أن ننبــه مثل هذا الباحث الا يغوص كثيرا فى التفصيلات الفرعية ، الى الحد الذى يجرفه بعيدا عن المقومات الأصلية ، والمسارات العامة .

وهنا نصل الى امكانات المستقبل بالنسبة الى الفلسفة الاسلامية . ويمكن أن نقرر أنها وفيرة وواعدة . ونقطة البــداية تكمن فى متابعة تلك التيارات التى يموج بها العالم الاســلامى فى الوقت الحاضر ، والتى يمكن تلخيصها فى « التيارات الأساسية » التالية :

١ — التيار السلفى المتشدد (ويرى ضرورة التمسك الدقيق بنصوص المصادر الاسلامية ، دون اللجوء لتأويلها أمام المشكلات المعاصرة) .

٢ — التيار السلفى المعتدل (ويرى ضرورة التمسك بروح المصادر الاسلاميــة ، مع امكان تأويل بعض النصوص حتى تتــلاءم مع المواقف المعــاصرة) .

٣ — التيار التغريبى الكامل (ويرى أن هدف التقدم ليس له الا طريق واحد ، هو الذى سلكه الغرب الأوربى — الأمريكى ، قبل المسلمين . وعلى هؤلاء أن يتابعوه كما هو) .

٤ — التيار التغريبى المعتــدل (ويرى امكان الاقتباس من منجزات التقــدم الغربى السابق ، مادامت لا تصطدم — صراحة — بالأصــول الاسلاميــة) .

٥ — التيار الاشتراكى (بشقيه المتطرف والمعتدل ، ويرى أن المذهب الاشتراكى هو الحل المناسب للأمة الاسلامية ، لمعالجة مشكلاتها الاقتصادية والاجتماعية ، أما باقى المشكلات الأخرى فحلها تابع لذلك)(١٢) .

ولا شك فى أن لكل واحد من هذه **« التيارات الخمسة الأساسيــة »** أنصاره ومريديه (الصرحاء والمتسترين ، المتحمسين والهادئين ، المخلصين والمنتفعين) والملاحظ أنهم يحاولون التعــايش مع بعضهم البعض ، لكن

الخلافات بينهم حقيقية ويمكن مشـــاهدة آثارها فيما ينشأ بينهم أحيانا من احتـــكاك ، لا يلبث أن يحسمـــه سريعا تزايد حـــدة الأخطار الخارجية ، والاحساس العميق بوحدة المصير ، وأهم من هذا وذاك : عدم تجاوب الأمة الاسلامية — كلها — بعد لحل واحد مما يقدم اليها .

وفى رأينا أن نجاح اى حل متوقف على توافر عدة شروط يأتى فى مقدمتها مدى تفاعله مع مشكلات الواقع المعـــاصر ، واقترابه من دائرة العقـــل ، واتصاله الوثيق بالمصادر الاسلامية ، مع جودة الاستمداد منها دون اغفال ما يجرى فى العالم كله ، ويؤثر يوميا فيه .

هذا بعض ما ينتظر العالم الاسلامى . وهو ما ينبغى على المشتغلين بالفلسفة الاسلامية « المعاصرة » أن يتابعوه رصدا ، وتحليلا ، وتقييما . وهم بهـــذا كله انما يساهمون مساهمة حقيقيـــة فى اثرائه ، والاشتراك المباشر فيـــه .

الهـــوامش

(١) انظر كتابنا : مدخل لدراسة الفلسفة الاسلامية ط القاهرة ١٩٨٥. ص ١٣ وما بعدها : الفصل الخاص بمجالات الفلسفة الاسلامية .

(٢) السابق : الفصل الرابع : المشكلات الحقيقية والمشكلات الزائفة فى الفلسفة الاسلامية . ص ٩٣ وما بعدها .

(٣) انظر نص « المنشور » الذى أصدره أبو يوسف يعقوب ، أمير الموحدين ، بشأن تحريم حيازة كتب الفلسفة ، وضرورة التبليغ عمن يشتغل بها . وذلك فى أعقاب نكبته لابن رشد ، الذى نفاه فيها ، وأمر باحراق كتبه — فى كتاب ابن رشد وفلسفته الدينية للدكتور محمود قاسم ، ص ٢١ وما بعد . ط الانجلو ١٩٦٩ .

(٤) انظر المحاضرة التى ترجمناها عن الفرنسية للدكتور طه حسين بعنـــوان « بناء مصر الحديثـــة » دراسات عربية واسلاميـــة ج ٤ ، ص ٥١ — ٩٥ .

(٥) من أشهر من قرر هذا الرأى : بروكلمان ، فى كتابه المترجم الى العربيـــة : « تاريخ الشعوب الاسلامية » ص ٥٤٢ وما بعدها — ط ٧ . دار العلم للملايين . بيروت .

(٦) زعماء الاصلاح ، ص ١٩٥ — ط القاهرة ١٩٤٨ .

(٧) انظر عن هؤلاء جميعا ، وغيرهم من خريجى دار العلوم فى شتى المجالات : تقويم دار العــلوم الذى قام بجمعه وتصنيفه المرحوم محمـــد عبد البـــاقى .

(٨) زعماء الاصلاح ، ص ١٩٧ .

(٩) الســـابق ، ص ١٩٧ .

(١٠) بالنسبة لعدد كبير جدا من هؤلاء الرواد نجـــد أنهم استخدموا الصحف والمجلات كوسيلة تعبير تقوم بتوصيل أفكارهم ، والأفكار المماثلة لها (وحتى المعارضة أحيانا) الى الجمهور . ومن الأمثلة على ذلك « المنار » و « التنـــكيت والتبكيت » و « المؤيد » و « اللـــواء » بالاضافة طبعا الى « العروة الوثقى » .

(١١) نقوم حاليـــا باعداد بحث حول جهود هؤلاء الأســـاتذة فى مجال الفلسفة الاسلامية ، وندعو الله تعالى أن يوفقنا لانجازه .

(١٢) انظر حول بعض هذه التيارات كتابى أ.د. يوسف القرضاوى : « الحلول المستـــوردة » ، « الحل الاسلامى » . النـــاشر مكتبة وهبة ، بالقـــاهرة .